التخييل الروائي المغربي وسؤال التراث الشعبي

حسن سوطيح
جامعة السلطان مولاي سليمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال
المغرب

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن تفاعل الرواية المغربية مع التراث الشعبي؛ فإذا كانت الرواية تخييلا أدبيا يراهن على تصوير القضايا الإنسانية بمختلف أشكالها، فإن استحضار التراث الشعبي سيكون أحد الروافد لربح هذا الرهان، لأن الأشكال الثقافية الشعبية حمّالة لرسائل ودلالات يمكنها أن تعكس واقع حياة الأفراد، ومن ثَمّ فهي مادة يمكن أن تكون موضوعا تقوم عليه الرواية، فتنطوي ثيمات يمكن للقارئ الوقوفُ عندها ومساءلتُها.

تبعا لهذا، سيسعى البحث إلى قراءة رواية لعبة النسيان، بوصفها نموذجا للرواية المغربية؛ وهي قراءة تنطلق من أن التراث الشعبي بكل أشكاله يمكن أن يُغني مادة الرواية، وحضوره لن يكون مجرد حشو أو مقاطع عابرة، بل هو حضور مركزي يحقق للرواية فنيتها وجماليتها المنشودة.

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- كيف تتفاعل الرواية المغربية مع التراث الشعبي؟
- هل يمكن القول إن التراث الشعبي مكون أساس في الرواية المغربية؟
- هل نجحت الرواية المغربية في عرض ثقافتها الشعبية؟
- ما الإضافة التي يُضْفيها التراث الشعبي على الرواية؟

الكلمات المفاتيح: التراث الشعبي، التخييل الروائي المغربي، رواية لعبة النسيان.

1. تقديم:

يحظى التراث الشعبي بأهمية كبيرة، لأنه أحد صور الهوية والتاريخ، وهذا ما يجعل الدراسات التاريخية والأدبية والنقدية تلتفت إليه محاولة سبر أغواره، لمعرفتها اليقينية بمدى أهميته؛ إنه أحد أسس الحضارة. وإذا كان الأدب يعتني بكل القضايا الإنسانية فإنه وبلا شك سيمتح من ذلك الإرث الثقافي الغني والمتنوع؛ تراث شعبي منقول بالكتابة أحيانا، وأحيانا أخرى بالمشافهة، تراث يؤثث الحقل الأدبي بكل أشكاله وأنواعه، إنه مدونة حضارية تاريخية لا يمكن غض النظر عنها؛ إننا نبصرها في مختلف الأجناس الأدبية، ولنا في التخييل الروائي خير مثال على هذا، فقلما نقرأ نصا روائيا ولا تستوقفنا إحدى العبارات الموسومة بميسم الثقافة الشعبية.

تستأثر الرواية اليوم باهتمام بالغ وبأهمية قصوى، باعتبارها خطابا أدبيا تخييليا استطاع أن يظهر نجاعته في تناول القضايا الاجتماعية والتاريخية والسياسية. ولم تكن الرواية المغربية لتنحرف عن هذا الإطار الذي ينبني داخله التخييل الروائي.

تبتغي هذه الدراسة الكشف عن تفاعل الرواية المغربية مع التراث الشعبي. وهنا نفترض أن الرواية المغربية زاخرة وغنية بتراث شعبي مغربي؛ أنها رواية تجعل من التراث الشعبي المغربي بمختلف أنواعه مادة أساسا؛ رواية تراهن على التراث الشعبي بأن يمنحها هوية.

وعلى هذا الأساس نطرح التساؤلات الآتية:

كيف تتفاعل الرواية المغربية مع التراث الشعبي؟ هل يمكن القول إن التراث الشعبي مكون أساس في الرواية المغربية؟ هل نجحت الرواية المغربية في عرض ثقافتها الشعبية؟ ما الإضافة التي يضفيها التراث الشعبي على الرواية؟

تقتضي إجابتنا على هذه الأسئلة أن نجعل الدراسة مؤسسة على المحاور الآتية:

- التخييل الروائي.
- التراث الشعبي.
- مظاهر التراث الشعبي المغربي في رواية لعبة النسيان لمحمد برادة.

2. التخييل الروائي:

1.2. مفهوم التخييل:

يرى حازم القرطاجني أن "التخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر والمخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في نفسه صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها، أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض"[1]. هكذا، فالتخييل هو عملية يحاول من خلاله المخيِّل رسم صور في ذهن متلقيه، فيثير انفعالاته. "ويحسن موقع التخييل من النفس، أن يترامى بالكلام إلى أنحاء من التعجب، فيقوى بذلك تأثر النفس لمقتضى الكلام"[2]. وما نفهمه من كلام القرطاجني هنا، أن التخييل يكون بالكلام الذي يثير تعجب المتلقي. و"الأثر التخييلي هو بالدرجة الأولى عمل إبداعي يعمد فيه مبدعه إلى الابتكار، فالروائي يبتكر الشخصية ويخيل الأحداث ويقوم بترتيبها وتتبع خيوطها"[3].

فالتخييل حسب ما رأينا، كل عمل إبداعي مبتكر، وإذا كان الأدب –شعرا أونثرا– عملا إبداعيا، فإن التخييل يكون مادته الأولية، فيرسم الأديب عالمه ويظهره للوجود، فأدب الرواية عمل تخييلي، يتشكل باللغة، ويمتح من وقائع المجتمع وكل القضايا الإنسانية؛ ولعل التراث الشعبي من مناهل هذا التخييل.

2.2. الرواية:

تُعرّف الرواية بأنها "جنس من التخييل"[4]، ذلك أن بناءها يقوم على التخييل، و"إن المفهوم الأول للرواية في اللغة الغربية roman، كان أيضا يعني عملا خياليا سرديا شعريا(...) إبداع خيالي نثري، طويل نسبيا، يقوم على رسم شخصيات، ثم تحليل نفسياتها وأهوائها"[5].

وتتحدد الرواية بكونها جنسيا تخييليا نثريا، ذا نفس طويل، فهي"عالم شديد التعقيد، متناهي التركيب، متداخل الأصول(...)لأنها ابنة الملحمة، والشعر الغنائي، والأدب الشفوي ذي الطبيعة السردية جميعا"[6].

وبالإضافة إلى هذا، فالرواية "منتوج متخيل ذو قاعدة اجتماعية، تفرز أحيانا داخلها تخييلا من درجة ثانية متولدا عن استيهامات بعض الشخوص"[7]، ذلك أن "المتخيل الجمعي بمكوناته وتجلياته المختلفة من الأسس التي يرتكز عليها الإنتاج الروائي"[8]، فالتخييل الروائي تخييل غني قد لا يعرف الروائي متى ينتهي، وإلى أي طريق يؤدي.

---

[1] – حازم القرطاجني أبو الحسن، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الحوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص:89.

[2] – حازم القرطاجني أبو الحسن، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 90.

3 – سي أحمد محمود، اللغة وخصوصيتها في الرواية، المجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم الآداب واللغات. ع19، جانفي 2018، ص 152.

[4] – نفسه: 149.

[5] – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، ديسمبر، 1998. ص: 25.

[6] – نفسه :25.

[7] – أحمد اليبوري، في الرواية العربية، التكون والاشتغال، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط1، 2000. ص:33.

[8] – نفسه:35.

ونذكر هنا أن معظم الروائيين المغاربة حرصوا على "استعادة الفضاءات وتجارب الحياة التي عاشوها. شكلوها بعناصر سردية وبتوليفات سير – ذاتية مختلفة تقاطع فيها الروائيُ مع ثقافة مجتمعية وتراثٍ شعبيّ الأصولِ والامتدادات"[9]. والكاتب الروائي المغربي لا يمكنه بأي حال أن ينسلخ عن ثقافته الشعبية والعربية.

وتبعا لهذا، ستنشأ الرواية محاولة وصف المجتمع من حيث قضاياه التاريخية والاجتماعية. ولما كان التخييل الروائي تخييلا اجتماعيا، فإن الرواية المغربية ستمتح من معين التراث الشعبي المغربي المتنوع؛ فلا شك في أن " الرواية العربية، باعتبارها نصا، شأنها في ذلك شأن أي نص كيفما كان جنسه أو نوعه، تتفاعل مع مختلف النصوص كيفما كانت طبيعتها، انطلاقا من تفاعلها مع واقعها"[10]، ف"سعيد يقطين" هنا، ينظر إلى الرواية باعتبارها نصا، ينفتح ويتفاعل مع مختلف النصوص، وهي بهذا المعنى تستمد بعضا من ضوئها، من عناصر أخرى تتفاعل معها لتكون نصا منسجما ذا غايات وأهداف.

9 – يوسف ناوري، التراث الشعبي.. منْ إعَادةِ الحكاية إلى هُجنة الكتابَة في الرواية المغربية، الموقع الإلكتروني ثقافات. زيارة الموقع 15 -05- 2023، على الساعة/ 18: 30، الرابط: https://thaqafat.com/2016/07/32319

10 –سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1992، ص: 7.

3. التراث الشعبي:

يأتي مفهوم التراث في المعنى اللغوي بمعنى التركة، وقد جاءت هذه الدلالة في القرآن الكريم في قوله تعالى: (كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا) (سورة الفجر، الآيتان: 19،20)، إن هذه الآية الكريمة تفيد أن التراث هو كل ما يتركه المتوفى من شيء يمكن الانتفاع منه. وهو ما نجده في لسان العرب، إذ ورد مفهوم التراث بالمعنى الآتي: "وَرِثَهُ مالَهُ وَمَجْدَهُ، وَوَرِثَهُ عنه وِرْثاً ورثة وَوِرَاثَةً وإِراثة(...) الوِرْثُ وَالوَرْثُ وَالإِرْثُ وَالوِرَاثُ والإِرَاثُ والتُّرَاثُ وَاحِد"[11].

أما في المعنى الاصطلاحي "فيُنظر إلى التراث على أنه بقايا ثقافة الماضي، بل على أنه تمام هذه الثقافة وكليتها: إنه العقيدة والشريعة، واللغة والأدب، والعقل والذهنية، والحنين والتطلعات"[12]. هنا يكون التراث مرتبطا بكل ما وقع في الماضي من أحداث، وهو ليس شيئا ماديا بالضرورة، بقدر ما هو مرتبط بهوية الإنسان، وفي معنى آخر فالتراث "ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد، وعادات، وتجارب، وخبرات، وفنون، وعلوم، في شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي قوامه الاجتماعي، والإنساني، والسياسي، والتاريخي، والخلقي، ويوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث"[13] .

وهذا التعريف يُظهر بجلاء أن المقصود بالتراث هو كل إنتاج في الماضي يخص مجتمعا وشعبا بعينه، فنقول التراث الشعبي المغربي ونقصد بذلك ما ارتبط بالمغاربة في فترة من الفترات، وما شاع بينهم من عادات وتقاليد وحكايات وأقوال كانت ألسنتهم تلهج بها.

وإن التراث الشعبي المغربي معين لا يمكن أن ينضب؛ لأنه يشكل مدونة غنية حافلة بالحياة الاجتماعية والإنسانية، وإذا كانت غاية الرواية هي تصوير تلكم الحياة الاجتماعية فإن التراث الشعبي سيكون مادة يُبنى على أساسها معمار هذه الرواية.

وعلى هذا، سنراهن بأن الرواية المغربية زاخرة بفسيفساء الثقافة الشعبية، ولتحقيق هذا الرهان سنسعى إلى البحث عن مظاهر هذه الثقافة من خلال رواية "لعبة النسيان" لمحمد برادة.

نستطيع أن نقول إن الرواية المغربية تنفتح على مجموعة من العوالم والحقول لتكتسب غنى وثراء من حيث الشكل والمضمون، فهي لا تسمح لنفسها بأن تكون منغلقة تحت سقف واحد ورؤية أحادية، فالتخييل الروائي أحضانه رحبة تتسع لكل ما يمكنه أن يزيدها قوة وثراء فنيا؛ "وعديدة هي النصوص الروائية العربية التي تحضر فيها هذه البنيات النوعية القديمة على شكل مناصات تاريخية أو دينية أو سردية...متضمنة في الرواية، ونلاحظ كون هذا الشكل هو المهيمن"[14].

ويعد التراث الشعبي من أهم ما انفتحت عليه الرواية المغربية، فهي "تشهد عودة الحكاية، وهي عودة تستدعي العودة إلى الذات والمجتمع والتاريخ والذاكرة، وتقتضي ألا تبقى الكتابة منشغلة بذاتها فحسب، بل أن تعيد الاعتبار للمرجع"[15] . ومن ثم، تكون الرواية مرآة عاكسة للتراث الحضاري.

ولعل انفتاح الرواية المغربية على التراث الشعبي، زادها أصالة، وأغنى تخييلها بما يتناسب وطبيعة الخطاب الروائي، فقد "كانت العودة إلى التراث الشعبي طريقة أخرى جسّدت بها الرواية العربية بُعدَها الأصيل والذي أرادَتْهُ في صميم بنائها الفني: أُسَّ مُتخيلٍ تتفاعل ضمنهُ أشكال

---

[11] – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1، 1997. مادة "ورث".

[12] –محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1991، ص:24.

[13] –جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم الملايين، بيروت، ط1، 1979، ص:64.

[14] – سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، ص:5

[15] – حسن المودن، الرواية المغربية الآن – ماذا عن أعمال حديثة لكتاب من الأجيال السابقة، أسئلة الرواية المغربية، دراسات وشهادات، آفاق مجلة اتحاد كتاب المغرب، ع 79 –80، دجنبر 2010، ص:24.

الحكي القديمة والحديثة؛ وإعلانَ انتماء وقرب من الأزمنة ومن الوطن"[16]. وبهذا المعنى ستشكل الرواية لحظة اعتراف بأمجاد وتاريخ ماضٍ عريق، فالتراث الشعبي تُبْعَثُ فيه الحياة حين يتم استحضاره في الرواية العربية.

4. مظاهر التراث الشعبي المغربي في رواية لعبة النسيان:

اكتست رواية لعبة النسيان من الثقافة الشعبية المغربية، ما يمكن أن يجعلها رواية خالصة للتراث الشعبي ومنتصرة له؛ فقد كانت أشكال هذا التراث حاضرة بقوة، فتجسدت من خلال الأسماء والصفات، والطقوس اليومية الشعبية، واللغة الدارجة المغربية، وبعض الأمثال الشعبية، والطقوس الخرافية.

1.4. الأسماء والصفات الشعبية:

يدل اسم العلم على شخص بعينه؛ وإضافة إلى هذا فهو يحمل دلالات ومعانيَ، وتلك الدلالات تكون في الأصل سبب اختيار اسم عن آخر، كأن يحمل إنسان اسم نبي، وشخصية تاريخية لها قيمتها بما يجعلها شخصية تظل حاضرة في الذاكرة الجمعية، ولهذا نقول إن التراث الشعبي المغربي في هذا الصدد حافل بما يميزه عن غيره، وقد جاءت لعبة النسيان بأسماء وصفات تولدت من داخل الثقافة المغربية العريقة، وهي أسماء تُميز مدينة فاس العريقة التي تعد معلما تراثيا، كل شيء فيها يحيلك على تلك الثقافة الشعبية المتوارثة، وفي ما يلي بعض الأسماء التي تخص الثقافة المغربية والفاسية بشكل خاص.

أ. **الأشخاص**: لالة الغالية، فاختة، سيدْ الطيب، ناس جواد، نجية، الطايع، الهادي، سي إبراهيم...[17]

نشير هنا أن الثقافة المغربية والعربية توجب احترام الشخص الكبير، فتأتي الأسماء مصدَّرة ب كلمة سيد ولالة، وعزيزي... وقد صورت لنا لعبة النسيان هذا الجزء المهم من ذلك التراث الشعبي المغربي.

ب. **الأماكن**: سيدي موسى، برطال، الدويرية، الصقلبية، السطوان، باب الكيسة، مسجد مولاي ادريس، آيت باها، باب الجلود، سويقة بن صافي...

تعد معظم أسماء الأماكن في الثقافة المغربية رمزا ثقافيا يحيلك على حدث مهم أو اسم شخصية بارزة في التراث المغربي، وقد حضرت هذه الأسماء داخل الرواية بشكل بارز موازاة بأسماء الأشخاص.

2.4. الطقوس اليومية الشعبية:

تتميز الحياة اليومية للمجتمع المغربي بمجموعة من الطقوس اليومية؛ طقوس تميز المغاربة عن غيرهم من الشعوب، وقارئ لعبة النسيان تستوقفه الكثير من المقاطع التي تدل على إرث ثقافي توارثه المغاربة أبا عن جد، ونمثل لهذا النوع من التراث بالمقاطع الآتية:

"تلتئم الدائرة شيئا فشيئا حول الجدة ولالة الغالية، ويدور الحديث في الخاوي والعامر، في أخبار الصحة، وأخبار الأقارب، ومصائب الوقت، وشيطنة الأولاد والبنات..."[18]

"الولدان في السطوان يتقاذفان كرة الشراويط الملفوفة في جورب"[19]

---

[16] – يوسف ناوري، التراث الشعبي.. منْ إعَادةِ الحكاية إلى هُجنة الكتابَة في الرواية المغربية، الموقع الإلكتروني ثقافات. زيارة الموقع 15 -05- 2023، على الساعة 19: 55. الرابط: https://thaqafat.com/2016/07/32319

[17] – محمد برادة، لعبة النسيان، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط3، 2002.

[18] – نفسه، ص:7.

[19] –نفسه، ص:8.

"الولدان يذهبان إلى مدرسة حرة، والبنت لم تتعلم سوى الطبخ والنفخ، والطرز والحشمة والأدب"[20].

"استيقظت لتصلي الفجر وتسعف أمها على قضاء حاجتها. من حين لآخر، تخرج لتشتري السفنج، وتعد الفطور..."[21].

"لكن الموضوع الأثير لأصحاب الدراز، هو الاحتفال بالربيع والخروج على النزاهة بضواحي المدينة، والاستماع إلى الطرب وقصص ألف ليلة"[22].

تصور هذه المقاطع نظرة المجتمع المغربي إلى الحياة، فأفراده اجتماعيون، يروّحون عن أنفسهم بحكايات طريفة وهم يحتفلون بالربيع.

كما تصور تلك النظرة القاصرة إلى المرأة، حيث لا تقوم إلا بأعمال المنزل والطبخ بنما يمكن للرجال الذهاب إلى المدرسة.

تكاد تكون هذه المقاطع صورة واحدة يعيش المجتمع المغربي آنذاك وفق تفاصيلها، صورة بدأت تخفت معالمها بسبب ما سمي بالعولمة، لكننا نقول، إن من أدوار الأدب والرواية خصوصا إحياء هذا التراث، والتعريف به.

3.4. اللغة الدارجة الشعبية:

ينبغي أن نشير هنا إلى أن توظيف اللغة الدارجة إلى جانب اللغة العربية الفصحى، يعد من صميم بناء لغة الرواية؛ فعلى الكاتب أن "يستعمل جملة من المستويات اللغوية التي تناسب أوضاع الشخصيات الثقافية والاجتماعية والفكرية"[23]؛ ذلك أن "الرواية هي التنوع الاجتماعي للغات وأحيانا للغات والأصوات الفردية، تنوعا منظما أدبيا."[24] وعلى هذا فإن الرواية المغاربية اتجهت نحو "التقاط اللغات واللهجات والرطانات التي تتفاعل في رحم المجتمع وتتناسل في نسيجه مولدة لغة أخرى"[25].

وفي هذا الصدد، كان محمد برادة وفيا لهذا المبدأ، ونحن نرى في توظيفه للّغة الدارجة المغربة انتصارا للثقافة الشعبية، فقد لمسناها من خلال هذه المقاطع الحوارية التي تخص الثقافة المغربية أثناء الجدال والخصام والعتاب، والتعبير عن الحنين والاشتياق وأثناء النصح والرشد، ونمثل لهذا بالعبارات الآتية:

"كيتك وخلا دارك أبو سلوفان. دبا تشوف؛ والله وقبضتك حتى نتفك. بربش وقرب لهنا"[26].

"آنئذ استطاب لالة ومالي وكرع كؤوس المتعة وسهرات الملحون الأندلسي"[27].

"والله إيلا سيد الطيب وامراتو خلاو الفايجا. توحشناهم هاذ المرة طولو الغيبة"[28].

"نوصيك أوليدي إذا بغيتي تربح فالدنيا والآخرة، هذاك الشي اللي تيشربوه هناك ما تذوقو، وهذاك الشي اللي تيكميوه ما تقربو، الزنا بعد منو، وحافظ على الصلوات الخمس وما تسرق ديال الناس. هذا ما نوصيك به"[29].

---

[20] – نفسه، ص: 9.

[21] – نفسه، ص: 11.

[22] –نفسه، ص:16.

[23] – عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ص 104.

[24]– ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، در الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1987. ص: 39.

[25]– عبد الحميد عقار، الرواية المغاربية، تحولات اللغة والخطاب، ، شركة النشر والتوزيع –مدارس الدار البيضاء، ط1، 1421 -2000. ص: 8.

[26] –محمد برادة، لعبة النسيان، ص: 11.

[27] – نفسه، ص: 20.

[28] – نفسه، ص: 21.

[29] – نفسه، ص:50.

تنطوي العبارة: "**كيتك وخلا دارك أبو سلوفان. دبا تشوف؛ والله وقبضتك حتى نتفك. بربش وقرب لهنا** "على اللغة الدارجة بما تحمله من تعابير وإيحاءات متداولة في الحياة اليومية المغربية. فالخطاب ينتمي إلى التواصل الشفهي العفوي، ويستثمر مفردات لا تؤدي معناها المعجمي فقط، بل تحمل شحنة ثقافية واجتماعية لا يدركها إلا المنتمي إلى البيئة نفسها. ومن خلال هذا التوظيف، يرسخ الروائي مبدأ **المحاكاة اللغوية للواقع**، إذ تتحدث الشخصيات بلغتها الطبيعية، الأمر الذي يعزز الإيهام بالواقع ويمنح النص هوية محلية واضحة. وهو ما يجعل اللغة الشعبية وسيلة للكشف عن البنية النفسية والاجتماعية للشخصيات.

وفي عبارة: " **استطاب لالة ومالي وكرع كؤوس المتعة وسهرات الملحون الأندلسي** "يحضر عنصر آخر من عناصر الثقافة الشعبية، يتمثل في **التراث الفني والغنائي** .فالإشارة إلى **الملحون الأندلسي** تستحضر أحد أهم أشكال التعبير الفني في المغرب، وهو فن يجمع بين الشعر والغناء ويحمل ذاكرة ثقافية ممتدة عبر التاريخ. ولا ترد هذه الإحالة بوصفها مجرد وصف لسهرات الطرب، بل تؤدي وظيفة دلالية تتمثل في تأكيد ارتباط الشخصية بفضاء ثقافي يحتفي بالفن الشعبي، ويجعل من الموسيقى والإنشاد جزءًا من الحياة اليومية. وهكذا تتحول الرواية إلى فضاء لحفظ الذاكرة الفنية الشعبية وإعادة توظيفها داخل البناء السردي.

أما في عبارة: " **والله إيلا سيد الطيب وامراتو خلاو الفايجا. توحشناهم هاذ المرة طولو الغيبة** "فتستضمر القيم الاجتماعية المغربية، وهو م يظهر في عبارة "**توحشناهم** " حيث تعبرعن قيمة إنسانية أصيلة في الثقافة الشعبية، هي قيمة الألفة وصلة الرحم والحنين إلى الغائبين، بما يجعل الخطاب الشعبي حاملًا لمنظومة وجدانية واجتماعية متكاملة.

ويتجلى البعد القيمي للثقافة الشعبية بوضوح في الوصية الواردة في المقطع الأخير: "**نوصيك أوليدي إذا بغيتي تربح فالدنيا والآخرة**"...؛ إذ يستثمر الروائي نموذج **الوصية الشفوية**، وهو من الأجناس التعبيرية المتجذرة في الثقافة الشعبية المغربية، حيث تنتقل القيم والخبرات من جيل إلى آخر عبر الخطاب المباشر. وتتأسس هذه الوصية على منظومة أخلاقية ودينية تدعو إلى اجتناب الخمر والتدخين والزنا والسرقة، والمحافظة على الصلاة، وهي قيم تشكل جزءًا من التربية الشعبية المغربية التي تمزج بين التعاليم الدينية والثقافة.

4.4 الأمثال الشعبية المغربية:

يحتل المثل الشعبي جزءا مهما في الثقافة الشعبية؛ وهو تراث شفوي يجري على ألسنة الناس منذ القديم، تراث استطاع أن يصمد وأبى إلا أن يكون حاضرا في الرواية المغربية من حين لآخر؛ فالتواصل اليومي حافل بتلك الأمثال العربية المتوارثة، والتي يتوسلها الناس في التعبير عن أهدافهم ومقاصدهم لما للمثل من قدرة بلاغية وبيانية، وقد حضرت داخل لعبة النسيان بعض هذه الأمثال بلغة دارجة مغربية، ونمثل لها بما يأتي:

"عياو ما يكتبو في الجرائد ويخطبوا في الجوامع.. على من تتقرا زابورك أداوود؟..."[30].

"شوية لربي وشوية لقلبي"[31].

"فوقت الشدة فاش لخّوت تيحتاجو لاخّوتهم"[32].

تأتي هذه المقاطع من صلب الأمثال الشعبية التي تلهج بها ألسنة المغاربة، فالمثل الأول: "**عياو ما يكتبو في الجرائد ويخطبوا في الجوامع.. على من تتقرا زابورك أداوود؟** مثل شعبي يُضرب لمن لا يجدي معه النصح أو التوجيه. ويقوم هذا المثل على إحالة دينية وثقافية إلى النبي داود والزبور، غير أن المقصد الشعبي يتجاوز الأصل الديني ليعبر عن عبثية الوعظ أمام من لا يستجيب له. وإيراد هذا المثل داخل

[30] – محمد برادة، لعبة النسيان ، ص:25.

[31] –نفسه، ص،62.

[32]–نفسه، ص:132.

الحوار يمنح الشخصية صدقية اجتماعية، ويكشف عن هيمنة الحكمة الشعبية بوصفها مرجعًا لتفسير الواقع وإصدار الأحكام، وهو ما يعزز الطابع المحلي للنص ويجعل الثقافة الشعبية مصدرًا لإنتاج الدلالة.

أما المثل "**شوية لربي وشوية لقلبي** "فهو من التعابير الدارجة التي تعكس إحدى سمات الثقافة الشعبية المغربية القائمة على مبدأ التوفيق بين الواجب والرغبة، أو بين الالتزام الديني ومتطلبات الحياة اليومية. ويؤدي هذا التعبير وظيفة دلالية تتجاوز معناه المباشر، إذ يكشف عن تصور شعبي للحياة يقوم على الاعتدال والتوازن، كما يمنح الحوار عفوية تنسجم مع البيئة الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصيات.

وفي المثل :" **فوقت الشدة فاش لخوت تيحتاجو لاخوهم** "يحضر خطاب التضامن العائلي بوصفه قيمة راسخة في الثقافة الشعبية المغربية . فالعبارة لا تقدم مجرد خبر، وإنما تستحضر منظومة أخلاقية تؤكد أن روابط الأخوة تتجلى حقيقتها في أوقات الأزمات.

تؤثث هذه الأمثال فضاء الرواية، بما يجعلها تمثل الثقافة المغربية المحضة، وتنقل إلينا تلك الحياة بقيمها الدينية والإنسانية والاجتماعية، فالمثل الشعبي ليس مجرد كلام، بل هو يحيلنا على قصص وحكايات يتم استحضارها لأخذ العبرة.

5.4. الخرافة الشعبية:

لا يمكن إغفال تلك المعتقدات الخاطئة –أو ما يسمى الخرافة الشعبية – من بين التراث الشعبي المغربي، فهو جزء حاضر وما يزال يعيش مع بعض الفئات المجتمعية، وفي لعبة النسيان تستوقف القارئ نماذجُ من تلك الطقوس التي اعتاد بعض المغاربة القيام بها؛ ومثاله: زيارة الأضرحة بنيّة أخذ البركة والاستشفاء، يقول السارد: "نفس الإحساس سحقني وأنا أزور ضريح "بويا عمر" ملجأ الحمقى بالقرب من مراكش. كانوا مشدودين إلى دواخلهم تصدر عنهم صيحات أو بكاء. يطوفون حول ضريح السيد. يغرقون في سهومهم..."[33]. فهذا المقطع يصور لنا جانبا من الحياة الاجتماعية التي تخص المعتقدات، وهو مقطع يعود بنا إلى تاريخ وثقافة شعبية خاطئة بدأت بالأفول، كانت تطبع بعض فئات المجتمع، إنه مقطع يكشف لنا البنية الهشة لنفسية الأفراد الذين لا يجدون سبيلا في العلاج غير طرق باب الضريح، هذا الفضاء الذي يمثل القداسة والكمال في المعتقد الجمعي. كما يعد الإيمان بقدرة الضريح على تقديم المساعدة من أبرز المعتقدات الشعبية لدى فئة اجتماعية تعاني هشاشة معرفية وفكرية.

وتبعا لهذ، فإن استدعاء ضريح **بويا عمر** لا يؤدي وظيفة الإحالة إلى مكان معروف فحسب، بل يسهم في إغناء المتن الروائي ثقافيًا ودلاليًا، من خلال استثمار أحد رموز الثقافة الشعبية المغربية للكشف عن تمثلات المجتمع تجاه المرض والقداسة والشفاء، وربط التجربة الفردية للسارد بالذاكرة الجماعية والمخيال الشعبي، وهو ما يمنح النص عمقًا إنسانيًا وثقافيًا يتجاوز حدود السرد الواقعي. ولعل الرواية المغربية في كثير من نصوصها تشير إلى هذه المشاهد التي تعد عنصرا من ثقافة شعبية مغربية كانت سائدة.

5. خاتمة:

تحظى الثقافة الشعبية في الرواية المغربية بأهمية بالغة، وهي من أهم روافدها التي تنهل منها وتتفاعل معها، وحضورها يضفي على الرواية طابع الواقعية، كما يجعلها أدبا متفاعلا مع الحياة الاجتماعية الإنسانية، مما يجعلها خادمة لقضاياه، مجيبة عن أسئلته.

وإن حضور الثقافة الشعبية أثرى مادة الرواية، إضافة إلى جعل المتخيل صورا حية لمجتمع متشبث بثقافته، فإن كانت الشخصية عنصرا سرديا مهما داخل البناء الروائي، ينشد السارد وصفه بدقة وواقعية فإن الأولى أن تنطق هذه الشخصية بلسان حالها الذي يعبر عنها، ومن

[33] – محمد برادة، لعبة النسيان ، ص: 92.

هنا، لا بد من استحضار أشكال الثقافة المغربية التي تجري على الألسن أو تظهر في أفعال وعادات يومية، لا سيما إن كان المتخيل سيرة ذاتية، أو رواية واقعية تحاول تصوير المجتمع في فترة زمنية.

وبالاقتراب من رواية لعبة النسيان للإجابة عن أسئلة البحث، خلصنا إلى النتائج الآتية:

- إن التراث الشعبي، بمختلف أنواعه، يضفي على موضوع الرواية طابع الهوية التي ينتمي إليها المؤلَّف، فقارئ لعبة النسيان سيعرف أن الرواية تنتمي إلى الأدب المغربي بما تحيل إليه من رموز وأشكال ثقافية تخص هذا البلد.
- إن التراث الشعبي المغربي كان له وزن داخل هذه الرواية، وهي رواية تنتصر إلى التراث الشعبي ولم تَتنكر له، فتجعل النص السردي جافا من كل إشارة أو عبارة تحيلنا إلى تراث شعبي مُعظم أشكاله تعاني من الإهمال والنسيان.
- إن محمد برادة استطاع أن يوظف مختلف أشكال الثقافة الشعبية المغربية في نصه، مما أغنى النص السردي من حيث المواضيع ومستويات اللغة.
- إن الخطاب الروائي وهو يتفاعل مع التراث الشعبي يعطي جنسا أدبيا ناجحا وناجعا في تصوير الوقائع الاجتماعية والتاريخية.
- إن استحضار الموروث الشعبي المغربي داخل الرواية لمن علامات الاعتزاز والافتخار بالهوية الثقافية التي ينتسب إليها المؤلَّف الروائي، وهو ما يعطي للأدب قيمته الفنية والتاريخية، فكيف يمكننا أن نقول رواية مغربية وهي خالية من آثار الموروث الثقافي الذي عُرف به المغرب عبر الأقطار؟ فالموروث الثقافي من أهم ما يمكن أن يعطي للرواية هويتها التي تنتسب إليها.

المصادر والمراجع:

- أحمد اليبوري، في الرواية العربية، التكون والاشتغال، شركة النشر والتوزيع المدارس، المغرب، ط1، 2000.
- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم الملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979.
- حازم القرطاجني، أبو الحسن، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الحوجة، دار الغرب الإسلامي، ط3 ،1986.
- حسن المودن، الرواية المغربية الآن – ماذا عن أعمال حديثة لكتاب من الأجيال السابقة، أسئلة الرواية المغربية، دراسات وشهادات، آفاق مجلة اتحاد كتاب المغرب، ع 79 -80، دجنبر 2010.
- سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1992.
- سي أحمد محمود، اللغة وخصوصيتها في الرواية، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم الآداب واللغات. ع19، جانفي 2018.
- عبد الحميد عقار، الرواية المغاربية، تحولات اللغة والخطاب، شركة النشر والتوزيع –مدارس الدار البيضاء، ط1، 1421 -2000.
- عبد الرحيم العلام ومحمد قاسمي، الرواية المغربية المكتوبة بالعربية، الحصيلة والمسار 1942-2003، وزارة الثقافة الرباط، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، شتنبر2003.
- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، ديسمبر، 1998.
- محمد برادة، أسئلة الرواية، أسئلة النقد، شركة الرابطة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996.
- محمد برادة، لعبة النسيان، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط3، 2002.
- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1991.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1، 1997.
- ميحائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، در الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1987.
- يوسف ناوري، التراث الشعبي.. منْ إعَادةِ الحكاية إلى هُجنة الكتابَة في الرواية المغربية، الموقع الإلكتروني ثقافات. زيارة الموقع 15 -05- 2023، https://thaqafat.com/2016/07/32319